بيان مقالة السلف(كل ممثل معطل).

"أوراق من رسالة: قلب الأدلة، على الطوائف المضلة في توحيد الربوبية والأسماء والصفات"

تأليف: تميم بن عبد العزيز القاضي.

"الوجه الرابع من قلب دليل التشبيه: أن الذين استدلوا بنفي التشبيه على نفي الصفات أو بعضها قد وقعوا في التشبيه ابتداءً وتوسُّطاً وانتهاءً(قبل أن يعطلوا، وفي المعنى الذي صرفوا تلك الصِّفة إليه، وبعد أن عطَّلوا).

فالتشبيه ملازم للمعطلة من هذه النواحي الثلاث:

الناحية الأولى من ملازمة التشبيه للمعطلة: ناحية الابتداء.

حيث إنهم لما قرؤوا نصوص الصفات لم يتبادر إلى أذهانهم منها إلا ما يليق ويختصُّ بالمخلوق، فنَجَّسوا قلوبهم بقَذَرِ التشبيه أولاً، ثم سارعوا إلى النفي والتعطيل ثانياً.

«ولهذا قال بعض أهل العلم: إن كل معطل مشبه، ولا يستقيم له التعطيل إلا بعد التشبيه»[1].

قال شيخ الإسلام رحمه الله :«وكلُّ واحد من فريقي التعطيل والتمثيل فهو جامع بين التعطيل والتمثيل، أما المعطِّلون فإنهم لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلاَّ ما هو اللائق بالمخلوق، ثم شرعوا في نفى تلك المفهومات، فقد جمعوا بين التعطيل والتمثيل، مثَّلوا أولاً، وعطَّلوا آخراً، وهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم، وتعطيل لما يستحقه هو سبحانه من الأسماء والصفات اللائقة بالله سبحانه وتعالى»[2].

---

(١) الصواعق المرسلة(١/٢٤٤).

(٢) الفتوى الحموية الكبرى ضمن مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام(٥/٢٧) وانظر:المرجع السابق(٥/٢٠٩)، درء تعارض

والمتتبع لكلام المعطلة في سياق نفيهم لصفات الله يتبين له بجلاء كيف أن التشبيه قد طرأ ابتداءً لأذهانهم، بل ولأقوالهم، فإنهم إذا ما تكلَّموا عما عطَّلوه من الصفات فإنهم يفسرون تلك الصفة بما هو من لوازم المخلوق الناقص، ثم يزعمون أننا لو أثبتنا تلك الصفة لله للزم أن يضاف ذلك اللازم الناقص لله تعالى، فهم قد قاسوا اتصاف الباري بتلك الصفة على اتصاف المخلوق بها، وجعلوا ما كان لازماً للمخلوق منها لازماً للخالق إن اتصف بها، وهذا القياس هو حقيقة التمثيل، فانقلب دليلهم عليهم، فإنهم إنما نفوا الصفات فراراً من التشبيه، والحقُّ أن نفيهم له لم يكن دافعه إلا التشبيه، ولم يكن مآله إلا إلى التشبيه.

ولهذا بين شيخ الإسلام رحمه الله أن غالب براهينهم التي نفوا بها الصفات هي بنفسها متضمِّنة لتشبيه الخالق بالمخلوق، وإدخال المخلوق والخالق تحت قضية كلية تجمع بينهما، قال رحمه الله : «كل برهان قطعي يستعملونه في حق الله فلا بد وأن يتضمن نوعاً من قياس الغائب على الشاهد، فإنهم إنما يمكنهم استعمال القياس الشمولي -الذي هو القياس المنطقي، الذي لا بد فيه من قضية كلية-... فلا بد في جميع ذلك من قضية كُلِّيَّة، وهو: أنَّ كُلَّ واحدٍ بهذه المثابة،... ولا بد أن يدخلوا الله تعالى في هذه القضايا العامة الكُليَّة، ويحكمون عليه حينئذ بما يحكمون به على سائر الأفراد الداخلة في تلك القضية، ويشركون بينها وبينه في ذلك، ومشاركته لتلك الأفراد في ذلك الحكم المطلق والمعلق على شرط، ومشابهته لها في ذلك هو القياس بعينه... فما من أحد يقيس غائباً بشاهد إلا ولا بد أن يدخلهما في معنى عام كُلِّيٍّ، كما في سائر أقيسة التمثيل، وما من أحد يُدخِل الغائب والشاهد في قياس شمول تحت قضية كلية إلا ولا بد أن يُشرِك بينهما، ويُشَبِّه أحدهما بالآخر في ذلك»[٣].

وتأمل على سبيل المثال قول أبي المعين النسفي-من الماتريدية- في تعطيله لصفة الاستواء على العرش، حيث علل هذا التعطيل بأن ظاهر آيات الاستواء يلزم منه محال، وهذا المحال هو

العقل والنقل(١٩/٧)، مدارج السالكين لابن القيم(٣٦٠/٣)، جلاء الأفهام(١٧٠)، الاعتصام للشاطبي(٢٤١/١)، شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز(٤٠١)، لوامع الأنوار للسفاريني(٩٤/١)، شرح نونية ابن القيم لابن عيسى(١١١/٢)، أضواء البيان(٣٠/٢-٣١)، منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات للشنقيطي(٣٥-٣٦، ٤٩-٥٠).

(٣) بيان تلبيس الجهمية(٧٣/٢-٧٤).

ما عبر عنه بقوله: «أنه تعالى يكون على العرش حَسَبَ كون المِلكِ على السرير»[٤].

فهذا نصٌّ واضح في أنه لم يفهم من اتصاف الربِّ بصفة الاستواء إلا مثل ما فهمه من اتصاف المخلوق بها، فلوَّث عقله بِدَرَن التَّمثيل أولاً، ثم بادر إلى التعطيل ثانياً.

وكذلك الرازي –من الأشاعرة– حيث قال في نفيه لصفة الضحك عن الله تعالى:«واعلم أن حقيقة الضحك على الله تعالى محال، ويدل عليه وجوه... الثاني: أن الضحك سَنَحٌ يحصل في جلد الوجه مع حصول الفرح في القلب، وهو على الله تعالى محال. والثالث: لو جاز الضحك عليه جاز البكاء عليه»[٥].

فلم يفهم الرازي من معنى الضحك ومن لازم الضحك إلا ما يراه ويفهمه من حقيقة ضحك البشر، ومن لازم ضحك البشر، حيث إنه لما رأى أن حقيقة الضحك عند البشر إنما هي تغير في الجلد وفرح في القلب، وأن من لازم الضحك عند البشر ثبوت البكاء، حصل له بعد ذلك قياسان فاسدان، حيث إنه جعل حقيقة الضحك المختصة بالبشر هي حقيقة المعنى الكلي للضحك، ولازم ذلك هو لازم هذا، ثم إنه قاس ومثَّل مرة أخرى قياساً أشنع من سابقه، فتوهم أن حقيقة الضحك عند البشر هي حقيقة الضحك في حق الله –إذا أثبتت هذه الصفة له– وأن ما يلزم من ثبوت الضحك للبشر هو بعينه ما يلزم من ثبوت الضحك لله.

وعلى هذا المنوال سار في نفيه لبقية الصفات، كقوله في صفة اليد :«أن قوله[تعالى]: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ المائدة: ٦٤ ، لو حملناه على ظاهره لزم كون يديه مبسوطتين **مثل يد** صاحب التشنيج[٦]، تعالى الله عنه»[٧]، وقال عن صفة الساق والكشف عنها:«إن الكشف عن الساق إنما يكون عند الاحتراز عن تلوث الثوب بشيء محذور، وجلَّ اله العالم عنه»[٨]!!.

كما قال «إن إثبات الساق الواحد للحيوان نقص، وتعالى الله عنه»[٩]، ونحن نقلب عليه

---

(٤) التمهيد في أصول الدين، لأبي المعين النسفي(٣٧).

(٥) أساس التقديس(١١٠).

(٦) هو انقباض في الجلد والأصابع وغيرهما، انظر: لسان العرب(٣٠٩/٢)، القاموس المحيط(٢٥٠).

(٧) أساس التقديس(٩٩).

(٨) أساس التقديس(١٠٩).

(٩) المرجع السابق.

قوله ونقول: إن إثبات حيوان بلا ساق أصلاً أشد عيباً ونقصاً، فعلى قياسك وإلزامك تكون قد شبهت الله بحيوان مبتور القدمين، تعالى الله وتقدس، فحجتك تنقلب عليك من باب أولى.

بل إنه قد بلغ الغاية في التمثيل -بل وفي سوء الأدب مع الله تعالى- وذلك حينما ذكر قوله ﷺ: ((...قال الله له[أي لآدم ﷺ] وَيَدَاهُ مَقْبُوضَتَانِ: **اخْتَرْ أَيَّهُمَا شِئْتَ**، قال: اخْتَرْتُ يَمِينَ رَبِّي، وَكِلْتَا يَدَيْ رَبِّي يَمِينٌ مُبَارَكَةٌ، ثُمَّ بَسَطَهَا، فإذا فيها آدَمُ وَذُرِّيَّتُهُ، فقال: أَيْ رَبِّ ما هَؤُلاءِ؟ فقال: **هَؤُلاءِ ذُرِّيَّتُكَ**، فإذا كُلُّ إِنْسَانٍ مَكْتُوبٌ عُمْرُهُ بين عَيْنَيْهِ...))[10].

فقد قال الرازي عن هذا الحديث:«ظاهر الخبر الذي رويناه يدل على أنه[أي الله تعالى] **كان يلعب** مع آدم عليه السلام **كما يلعب الصبيان** بعضهم مع بعض، حين يقبضون أيديهم على الزوج والفرد، والصبيان إذا فعلوا ذلك ضربهم المعلم وأدبهم»!!![11].

فهذا كلام خاتمة محققيهم -والذي يلقبه أصحابه بالفخر، ولا فخر- يزعم أن نبي الهدى ﷺ كان يخبر أصحابه بما ظاهره: أن الله -جلَّ في علاه- كان يلعب مع نبيه آدم ﷺ كما يلعب الصبيان لعباً يستحقُّون عليه الضرب!! تعالى الله عن قوله وتقدَّس، وهذا مما يبين أن التمثيل قد طرأ على ذهنه في أوَّل وهلة من سماعة لنصوص الصفات التي ينفيها، مما يبين أن هؤلاء النفاة هم الأحق بوصمة التمثيل، ولو أن تنزيه الله -التنزيه الحق- قد كان مستقرّاً عنده لما طرأ عليه هذا القياس التمثيلي من الأصل، بل لأثبت هذه الصفة -كسائر الصفات- إثباتاً بلا تمثيل، مع تنزيه الله عن مشابهة مخلوقاته تنزيهاً بلا تعطيل[12].

«فانظر إلى أقبح التشبيه والتمثيل الذي ادَّعوا أنه ظاهر النصوص، وإلى التعطيل الذي

---

(١٠) أخرجه الترمذي في جامعه(٤٥٣/٥) ح(٣٣٦٨)، وقال : «حَسَنٌ غَرِيبٌ من هذا الْوَجْهِ وقد رُوِيَ من غَيْرِ وَجْهٍ عن أبي هُرَيْرَةَ عن النبي ﷺ من رِوَايَةِ زَيْدِ بن أَسْلَمَ عن أبي صَالِحٍ عن أبي هُرَيْرَةَ عن النبيﷺ»، والحاكم في مستدركه(١٣٢/١) ح(٢١٤) وقال: «صحيح على شرط مسلم»، وابن حبان في صحيحه(٤١/١٤) ح(٦١٦٧)، والبيهقي في السنن الكبرى(١٤٧/١٠) ح(٢٠٣٠٧)، والحديث صححه الألباني، كما في صحيح الجامع الصغير -رقم(٥٢٠٩).

(١١) أساس التقديس(١٠٣-١٠٤)، وفي طبعة الجيل ت: السقا(١٤٩).

(١٢) وانظر ما ذكره في نفس الكتاب عن بقية الصفات، كصفة الوجه(٩٥)، والعينين(٩٦) والحياء(١١٢)، والأصابع(١٠٦-١٠٧).

سَطَوا به عليها، وسموه:(تأويلاً)! فصحَّ أنهم جمعوا بين فهم التشبيه منها، واعتقاد التعطيل، ونسبة قائلها إلى قصد ما يضاد البيان والإرشاد، والله المستعان»[١٣].

ولكن تأمل ما قاله الرازي في موضع آخر -لما كان الكلام في صفة يزعم الأشاعرة إثباتها- فإنه لما تكلم عن صفة السمع لله، ذكر سؤالاً على هذا الإثبات مفاده: (أن حقيقة السمع هي تأثر وتأذي صماخ الأذن بما يحدث في الهواء من تموُّج وانقلاب بسبب ما يكون من مصدر الصوت من قَرْعٍ أو قَلْعٍ، والتأثر بذلك ممتنع على الله).

فأجاب الرازي عن هذا الإيراد بما مفاده: أن ما ذُكر ليس هو حقيقة السمع، فلا يلزم من إثباته للمخلوق ثبوته للخالق، وقال: «إن إدراك الصوت حالة مغايرة لتأثير الصماخ عن تموج ذلك الهواء»[١٤]، وعليه فلا يلزم من ذلك نفي صفة السمع.

فيقال له: إذا كنت لم تلتزم بما أورد عليك في صفة السمع، فكيف تُلزمُ أهلَ الإثبات بما زعمتَه من أن حقيقة الضحك هي ما يحصل في جلد الوجه من سنح، أو ما يحصل في القلب من فرح، وما الذي يمنع من إثبات صفة الضحك -حيث أثبتها الله لنفسه- من غير إثباتٍ لتلك اللوازم البشريَّة للضحك، كما أثبَتَّ أنت صفة السمع من غير التزام لما أورد عليك؟.

ولما أورد عليه بعد ذلك: أن حصول التأثر في الصماخ هو من لوازم ثبوت السمع، وإن كان مغايراً له، ما كان من الرازي إلا أن رجع للاستدلال النصِّي فقال:«ظاهر قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ الشورى: ١١ يدلُّ على كونه سميعاً بصيراً، فلم يجز لنا أن نعدل عن هذا الظاهر إلا إذا قام الدليل على أن الحاسة المسماة بالسمع والبصر مشروطة بحصول التأثر»[١٥].

---

(١٣) الصواعق المرسلة(١/٢٨٧).

(١٤) التفسير الكبير للرازي(٢٧/١٣٣).

(١٥) المرجع السابق، وهذه عادة عند الصفاتية من المتكلمين، إذا ما واجههم المعتزلة بالشُّبَه العقلية المحيِّرة لهم: رجعوا (سَلَفيِّين) متشبثين بالنصوص(وانظر مثال ذلك في: شرح العقائد النسفية للتفتازاني(١٠١)، شرح المقاصد له(٢/٧٧)). وأنَّى يسلم لهم ذلك الرجوع وقد أبطلوا إفادة النصوص لليقين في العقائد إلا بشروط لا يمكن تحقق بعضها(كاشتراط عصمة رواة مفردات تلك الألفاظ-وصحة إعرابها، وتصريفها- وعدم الاشتراك-والمجاز..إلخ، وسلمت بعد ذلك من المعارض العقلي؟!كما ذكره الرازي نفسه في المحصل(١٤٣) والمحصول(١/٥٤٧-٥٧٦).

ونحن نقلب عليه كلامه فنقول -تماماً كما قال-: إن ظاهر قوله ﷺ:((يضحك الله))[١٦] يدل على كونه متصفاً بالضحك، فلا يجوز أن نعدل عن هذا الظاهر[ونقول تنزلاً:] إلا إن قام الدليل على أن الضحك مشروط بحصول(سنح الجلد وفرح القلب)، وأنَّى للرازي أو لغيره أن يثبت هذا اللازم، ولكنه التناقض الذي عرف هذا الرجل وطائفته به، عفا الله عنه.

وكذلك المعتزلة ومن تبعهم ممن نفى الصفات كلها عن الله، فإنما نفوها لما توهموا أن من لازم إثباتها تمثيلها بصفات المخلوقين.

فهذا القاضي عبد الجبار المعتزلي يقول في نفيه لقيام صفة العلم بالله:«إن وَجَبَ هذا وجب أن يكون عِلمه في قَلبِه، وأن يكون ذا قلب وجوارح **كأحدنا**، وهذا محال»[١٧].

فعبد الجبار لا يفهم قيام صفة العلم بالله إلا كما تقوم بـ(**أحدنا**)، أفليس ظنه هذا هو عين التشبيه؟!

وهذا أحد أئمة الزيدية عندما عرض لقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ ﴾البقرة: ١٤ : ١٥، وقوله: ﴿ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ ﴾التوبة: ٧٩، وقوله:﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ ﴾النساء: ١٤٢، زعم أن مَنْ حَمَلَ ذلك على حقيقته فقد«لزمه أنَّ ربه يستهزئ **كما** يستهزئ السفهاء، ويسخر **كما** يسخر السخفاء، ويَخدع **كما** يخدع الضعفاء»[١٨]!!

وقال غيره من الزيدية في إنكار صفة الكلام لله تعالى:«إن كان معبودكم على ذلك...فلا بد له من صانع خالف بين شفتيه ولسانه، وغاير بين حنكه وأسنانه، وكذلك لا بُدَّ له من صانع خالف بين صوته وجثمانه؛ لأن الصوت لا يخرج إلا من الجثمان، ولا يفرق بين الحروف إلا بالنسمة والجنان، والحنك والشفتين والأسنان، **وإذا كان كذلك فلا فرق بينه وبين الإنسان**»[١٩].

---

(١٦) كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة وغيره: البخاري(٣/١٠٤٠) ح(٢٦٧١)، ومسلم(٣/١٥٠٤) ح(١٨٩٠).

(١٧) المختصر في أصول الدين له-ضمن رسائل العدل والتوحيد(١/١٨٣).

(١٨) النجاة لأحمد بن يحيى بن الحسين(٤٠١).

(١٩) كتاب التوفيق والتسديد ضمن مجموع كتب ورسائل الحسين بن قاسم العياني الزيدي(٢٢٨)، وهذا الزيدي

وإذا نظرنا إلى من هو أشد من هؤلاء تعطيلاً –وهم الفلاسفة– وجدناهم بالمقابل أشد الطوائف تمثيلاً، فإنك لترى في كلام الفلاسفة من الخوض في التمثيل وفي الكيفية ما لا تراه في كلام غيرهم.

وتأمل كلام ابن سينا في نفيه لصفة الرحمة عن الله، يتبين لك بجلاء كيف علقت لوثة التمثيل في ذهنه أولاً، ثم عطل ثانياً، وذلك حين قال: «الرحمة: انفعال يعرض للإنسان إذا رأى شيئاً مخالفاً لِما جرت به العادة، ولِما اقتضته طبيعته، ولا يصح هذا في الله تعالى، فإنه يفعل كل شيء بالحكمة المتقنة، فلا مدخل للانفعال في الحكمة»[٢٠].

بل إنه يصرح بالخوض في الكيفية فيما يتعلق بالله، حيث يقول:«فصلٌ: في أن واجب الوجود كيف يعقل الأشياء، فأما كيفية ذلك: فلأنه إذا عقل ذاته، وعقل أنه مبدأ كل موجود عقل أوائل الموجودات عنه وما يتولد عنها...إلخ»[٢١].

ولهذا تراهم يصرِّحون بأن الفيلسوف –الحكيم، على حد تعبيرهم– يطرح على نفسه كل المسائل في آن، من عِلَّة وطبيعة وغاية العالم، والإنسان، إلى حقيقة الله في السماء..[٢٢].

وهذا إمام الفلاسفة ومعلمهم الأول: أرسطوطاليس، قد وقع في التمثيل والتنقص للرب تعالى بأبشع صوره، حيث إنه قد نفى علم الله بكل ما سواه من الجزئيات والكليات[٢٣]، وكان مما احتج به على هذا النفي والإلحاد زعمه أن الله(المبدأ الأول حسب تعبيره) لو عقل كل ما سواه من الأشياء الكثيرة المتغيِّرة«فلا محالة أنه يلزمه الكلال والتَّعب في إيصال العقل للمعقولات»[٢٤]، فقاس علم الله على علم خلقه أقبح قياس، فإنه لمَّا توهَّم أن كثرة المعلومات

المتعصب قد سمَّى من اعتقد ثبوت صفة الكلام لله والعلو والاستواء مشركاً!!، ودعا إمام المسلمين إلى التقرب إلى الله بقتله وإتلافه!!(نفس المرجع، بعد الكلام السابق) وهذه فائدة تُهدى لدعاة التقريب مع هؤلاء ومن هو أشد غلوّاً منهم، والله المستعان.

(٢٠) التعليقات لابن سينا(٤٣٤)، وانظر: الحدائق في المطالب العالية الفلسفية العويصة للبطليوسي(١١٨-١١٩).

(٢١) النجاة(٢/١٠٣)، وانظر نفس المرجع(٢/١٢٠).

(٢٢) انظر: موسوعة لالاند الفلسفية(٣/١٢٣٤).

(٢٣) سيأتي تفصيل قول أرسطو وغيره من الفلاسفة في علم الله–في مبحث :قلب الأدلة في مسألة التركيب والتجسيم.

(٢٤) انظر: المعتبر في الحكمة لأبي البركات البغدادي(٣/٧٠)، درء تعارض العقل والنقل(٩/٤٠٥، ٤٠٧).

بالنسبة للإنسان هي مما يتعبه ويرهق ذهنه، أخذ من هذا التَّوهُّم حكماً عامّاً أدخل فيه الرب -جلَّ في علاه- وادعى أنه تعالى لو علم بذلك للزمه مثل ما لزم المخلوق من التَّعب، ولا شك أن هذا القول من أعظم الأقوال كفراً، بل إنه أشد كفراً من قول اليهود ممن زعم أن الله قد تعب لمَّا خلق السماوات والأرض في ستَّة أيام، وأنه استراح بعد ذلك، تعالى الله عن قولهم عُلُوّاً كبيراً، وقد أبطل الله فريتهم بقوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ق: ٣٨ ، ومع ذلك يقال: إن قول الفلاسفة بحصول التعب والكلال من إيصال العقل للمعقولات أقبح في الشرع والعقل من قول اليهود بحصول التعب بعد خلق السماوات والأرض، فتوهم التعب في العلم أشد من توهمه في الخلق، مع أن كلا القولين في غاية الكفر والتنقص للباري تعالى[٢٥].

فالحاصل أن كلَّ من كان أعظم لله تعطيلاً، كان أعظم تشبيهاً وتكييفاً وتمثيلاً وتنقيصاً.

ومن هنا يتبين أن أصل الإشكال عند هؤلاء أنهم عمدوا إلى القدر المختص بالمخلوق من الصفات، ثم جعلوه لازماً للقدر المشترك (والذي هو أصل المعنى للصفة)، ثم توصَّلوا بذلك إلى نفي تلك الصفة عن الله، ولو أنهم فرَّقوا بين هذه الأمور الثلاثة(القدر المختص بالخالق، والقدر المختص بالمخلوق، والقدر المشترك) وقطعوا التلازم التام بينها، لسلموا من هذا الإشكال.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله :«وخصائص المخلوقين لا يجوز إثباتها لرب العالمين، بل الصفة المضافة إلى الله لا يلحقه فيها شيء من خصائصهم، فإثباتها له كذلك لا يحتاج معه إلى تأويل، فإن الله ليس كمثله شيء.

وقد تقدم أن خصائص المخلوقين غيرُ داخلة في الاسم العام -فضلاً عن دخولها في الاسم الخاص المضاف إلى الرب تعالى- وأنها لا يدل اللفظ عليها بوضعه حتى يكون نفيها عن الرب تعالى صرفاً للفظ عن حقيقته.

---

(٢٥) انظر: درء تعارض العقل والنقل(٩/٤١٥، ٤٢٧-٤٢٩)، وكذلك: المعتبر في الحكمة لأبي البركات البغدادي(٣/٧٩-٨٠).

ومن اغتفر[٢٦] دخولها في الاسم المضاف إلى الرب، ثم توسَّل بذلك إلى نفي الصفة عنه: فقد جمع بين التشبيه والتعطيل.

وأما من لم يُدْخِلها في مسمى اللفظ الخاص، ولا أثبتها للموصوف: فقوله محض التنزيه، وإثبات ما أثبت الله تعالى لنفسه.

فتأمل هذه النكتة، ولتكن منك على ذكر في باب الأسماء والصفات، فإنها تزيل عنك الاضطراب والشبهة»[٢٧].

ولهذا يقال قولٌ عامّ: إن عامة الأقيسة والحجج التي يذكرها النفاة في المطالب الإلهية، والتي احتجوا بها على النفي: هي مبنية على تمثيل الله بخلقه، وعلى قياس الغائب على الشاهد، وذلك أنهم قد تعمقوا وتحذلقوا في محاولة الكشف عن ماهيَّة ما يشعرون به من الأعراض وما يرونه من الأجسام، وفي استنباط ما يتعلق بها من قوانين وأحكام، وأتوا في ذلك بما فيه غلط وصواب، وغالبه مبني على الظن والتخمين، لا على القطع واليقين، ولذا كثر خلافهم فيه، ومع ذلك فليس الخطب في بحثهم وخلطهم هذا، وإنما كان الضلال والغلط العظيم منهم حينما نقلوا تلك الأحكام مما شاهدوه من الأجسام إلى ما لم يشاهدوه من أمور الغيب والآخرة ونحوها، والطامة الكبرى والرزية العظمى أنهم جعلوا تلك الأحكام مقولة على ربِّ الكون، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون عُلُوّاً كبيراً.

فلمَّا توهمت المتفلسفة وأتباعهم المعتزلة أن الصفات لازمة للأجسام الحادثة، نقلوا هذا الحكم إلى رب الكون، فتوهموا أن لو كان متصفاً بالصفات لكان جسماً حادثاً.

ولمَّا رأت الأشعرية وأتباعهم أن الأفعال تقوم بالأجسام الحادثة المخلوقة، توهموا -كذباً وزوراً- أن إثبات قيامها بالله يستلزم أن يكون حادثاً.

فهم لما شاهدوا هذه الأحكام متحققة فيما رأوه من المخلوقات والأجسام، أخذوا منها قضيَّة كبرى، وهي أن كل ما كان متصفاً بذلك فإنه مخلوق حادث، ثم لم يلبثوا إلا أن أدخلوا الربَّ تعالى تحت هذه القضية الكبرى، تعالى الله وتقدس عن قولهم، فهم قد غلطوا أولاً بأخذ

---

(٢٦) في طبعة عالم الفوائد-تحقيق:علي العمران: (ومن اعتقد) (٥١٧/٢).

(٢٧) بدائع الفوائد(٣١٤/٢).

الحكم العام، بناءً على ما رأوه من المخلوقات والأجسام، وغلطوا ثانياً بإدخال الرب تحت ذلك الحكم العام، ثم غلطوا وضلوا ثالثاً بنفي ما أثبته الله لنفسه وأثبته له نبيه ﷺ مما ثبت في النصوص المتواترة القطعية الثبوت والدلالة اعتماداً على ذلك القياس الوهمي، بل القياس المغلوط الكاذب.

ومن هنا يتبين أن هؤلاء إنما بنوا فلسفتهم وكلامهم من الأساس على التشبيه والتمثيل وقياس الخالق على المخلوق، فما عظموا الله حقَّ تعظيمه، ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ الزمر: ٦٧، ولو قَدَرُوا الله حقَّ قدره لأثبتوا تلك النصوص بلا تعطيل، ونزهوا الباري عن الندِّ والمثيل.

قال شيخ الإسلام رحمه الله :«إن العلم الإلهي لا يجوز أن يُسْتَدَلَّ فيه بقياس تمثيلٍ يستوي فيه الأصل والفرع، ولا بقياسٍ شموليٍّ تستوي أفراده؛ فإن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء، فلا يجوز أن يُمَثَّل بغيره، ولا يجوز أن يُدْخَل هو وغيره تحت قضية كُلِّيَّة تستوي أفرادها، ولهذا لما سلك طوائف من المتفلسفة والمتكلمة مثل هذه الأقيسة في المطالب الإلهية لم يصلوا بها إلى يقين، بل تناقضت أَدِلَّتُهُم، وغلب عليهم بعد التناهي الحيرة والاضطراب لِما يرونه من فساد أدلتهم أو تكافئها»[٢٨]، «ومن حكى عن أحد من أهل السنة أنه قاس صفاته بصفات خلقه فهو إما كاذب أو مخطئ»[٢٩].

وهذا النوع من القلب قد استعمله الإمام عثمان بن سعيد الدارمي رحمه الله في رده على المريسي[٣٠]، كما ذكره الإمام الموفق ابن قدامة رحمه الله ، وذلك في رده على من أنكر الصوت عن كلام الله، محتجّاً بأن«الصوت اصطكاك في الهواء، أو فقرع في الهواء»[٣١]، وأن ذلك من التشبيه، فيلزم نفي الصوت –وقد تقدم الإشارة إليه قريباً– فقد ردَّ قول هذا المعطِّل، وبين أن

---

(٢٨) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام(٣/٢٩٧)، وانظر: درء التعارض(١/٢٩)، شرح الطحاوية(١٢٢).

(٢٩) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام(٣٣/١٧٥).

(٣٠) انظر:نقض الدارمي على المريسي(١/٣٠٦-٣٠٨).

(٣١) تحريم النظر في كتب الكلام لابن قدامة(٦٢)، وانظر مثل هذا القول عند أبي المعين النسفي من الماتريدية: التمهيد في أصول الدين(٤٥).

هذا المعنى في الصوت(اصطكاك الأجرام) لو كان ثابتاً ولازماً للمخلوقات، فلا دليل على لزومه في حقِّ الباري تعالى[٣٢]، ثم قال -**قالباً** هذا الاحتجاج عليهم- :«إنكم رجعتم إلى التشبيه -الذي نفيُه مَعتَمَدُكم في رد كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ- وجعلتم الله تعالى مَقِيْساً على عباده، ومشابهاً لهم في صفاته وأسمائه، **وهذا هو عين التشبيه**، فبُعداً لكم»[٣٣].

وقال الإمام ابن بطة العكبري رحمه الله -عمن نفى صفة اليدين لله فراراً من التشبيه-: «قالوا: (لا نقول إن لله يدين؛ لأن اليدين لا تكون إلا بالأصابع وكف وساعدين وراحة ومفاصل)، ففروا بزعمهم من التشبيه، ففيه وقعوا، وإليه صاروا، وكل ما زعموا من ذلك فإنما هو من صفات المخلوقين، وتعالى الله عن ذلك عُلُوّاً كبيراً»[٣٤].

وقال الشيخ الواسطي عَمَّن أوَّل الاستواء بالاستيلاء، والنزول بنزول الأمر، واليدين بالنعمتين:«إنهم ما فهموا في صفات الرب تعالى إلا ما يليق بالمخلوقين، فما فهموا عن الله استواءً يليق به، ولا نزولاً يليق به، ولا يَدَين تليق بعظمته بلا تكييف ولا تشبيه، فلذلك حرَّفوا الكَلِمَ عن مواضعه، وعطَّلوا ما وصف الله تعالى به نفسه»[٣٥].

والناحية الثانية من ملازمة التشبيه للمعطلة: ناحية التوَسُّط، أي في المعنى الذي صرفوا إليه ما أنكروه من الصفات.

وذلك أنهم لما أنكروا ما أنكروه من الصفات بحجة التشبيه، وحرَّفوا تلك الصفات إلى معانٍ أخرى اخترعوها من أهوائهم، فإن هذه الحجة تنقلب عليهم في المعاني التي صاروا إليها، فإنه يلزمهم فيها التشبيه، كما جعلوه هم لازماً في المعاني التي فرُّوا منها.

فحيث زعموا أن إثبات الصفات التي أنكروها تشبيهٌ، فيلزم أن تكون المعاني التي صاروا

---

(٣٢) المرجع السابق(٦٣).

(٣٣) تحريم النظر في كتب الكلام(٦٣)، وانظر: حكاية المناظرة في القرآن له(٢٢-٢٣، ٢٥، ٤٣).

(٣٤) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية-ت:الأثيوبي (٣/٣١٤).

(٣٥) النصيحة في صفات الرب للواسطي(٢٢)، وهي الرسالة المنسوبة للجويني الأب بعنوان (رسالة في إثبات الاستواء والفوقية) ص (٧٢-٧٣).

إليها تشبيهاً أيضاً[٣٦].

ومثال ذلك: إنكار المتكلمين قاطبة لصفة الاستواء عن الله وتفسيرهم لها بالاستيلاء، فإنهم قد اعتقدوا -أولاً- أن إثباتها يستلزم التشبيه، فدفعهم ذلك إلى تعطيلها ونفي حقيقتها عن الله، ثم إنَّهم قد فسَّروها بمعنى مخترع من تلقاء أنفسهم، وذلك حين فسَّروها بالاستيلاء، وهذا المعنى الذي فسروها به يلزمه من التشبيه مثل ما توهموه لازماً في الاستواء، بل ورود التشبيه على الاستيلاء أولى وأحرى.

وقد أشار لهذا النوع من القلب جمعٌ من الأئمة، كالإمام أحمد، والإمام عثمان الدارمي[٣٧]، وعبد العزيز المكي الكناني، والإمام القصاب الكرجي، والسجزي، وابن الحنبلي، وأبي الوفاء ابن عقيل، وابن القيم[٣٨]، ومن المتأخرين: العلامة المعلمي، والعلامة الشنقيطي، وشيخنا ابن عثيمين، ونحوهم رحمهم الله.

فقد قال الإمام أحمد رحمه الله قالباً دليل التشبيه على المعتزلة ممن نفى صفة الكلام عن الله حذراً من التشبيه، وجعل كلام الله مخلوقاً، فقال حاكياً مناظرته مع بعض الجهمية:«فلما ظهرت عليه الحجة قال[أي الجهمي]: إن الله قد يتكلم، ولكن كلامه مخلوق. فقلنا: وكذلك بنو آدم كلامهم مخلوق، فقد **شبَّهتم الله تعالى بخلقه** حين زعمتم أن كلامه مخلوق، ففي مذهبكم أن الله قد كان في وقت من الأوقات لا يتكلم حتى خلق التَّكلُّم، وكذلك بنو آدم لا يتكلمون حتى خلق لهم كلاماً، فقد **جمعتم بين كفر وتشبيه**، فتعالى الله جل ثناؤه عن هذه الصفة، بل نقول: إن الله جل ثناؤه لم يزل متكلماً إذا شاء، ولا نقول إنه قد كان ولا يتكلم حتى خلق...»[٣٩].

فبين الإمام أن المعنى الذي فرَّ الجهمية إليه في صفة الكلام هو ملازم للتشبيه، إذ فيه تشبيه كلام الباري بكلام بني آدم المخلوق، كما قلب ذلك عليهم الإمام عبد العزيز المكي

---

(٣٦) وقد سبق ما هو قريب من هذا القلب في الوجه الأول، الناحية الثانية.

(٣٧) انظر: نقض الدارمي على المريسي(١/٤٢٨-٤٢٩، ٥٥٧).

(٣٨) انظر: الصواعق المرسلة(١/٢٣٥-٢٧٨).

(٣٩) الرد على الزنادقة والجهمية-ت:دغش العجمي(٢٧٤-٢٧٨)، وانظر: درء تعارض العقل والنقل(٢/٢٩٥-٢٩٦)، الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام(٥/١٣٣).

الكناني في مناظرته لبشر المريسي[٤٠].

وقال الإمام القصاب الكرجي عمن نفى صفة السمع والبصر من الجهمية: «وإن لم يُثبِت[أي صفتي السمع والبصر]، وأخذ بالسميع والبصير إلى معنى الإدراك؛ خوفاً من التشبيه: **لم يَسْلَم من التشبيه**، بل تعجَّل الخسران في ترك لفظين نازِلين في كتابه، وردَّ اسمين له سبحانه إلى اسمٍ واحدٍ، وهو:(المدرِك)، وكيف يسلمُ من التشبيه؟! أليس للمخلوق أيضاً إدراكٌ لأشياء، وإن لم يُدرك جميعها، كما يدرك الله جميعها، كما أن له علماً بأشياء، وإن لم يُحسَّ بجميعها، كما يعلم الله جميعها»[٤١].

كما أن الإمام السجزي قد قلب الدليل على الأشاعرة –ممن نفى الحرف والصوت عن كلام الله بحجة التشبيه– فقال:«وقالوا: (إثبات الحروف في كلام الله تشبيه)، ثم قالوا: (كلام الله وكلام غيره لا حروف فيهما) **فأفصحوا بالتشبيه**، ولو كان قولنا: إن الكلام لا يعرى عن الحروف تشبيهاً –مع كون الكتاب دالاً على صحة قولنا، وكذلك الأثر، وكلاّ أن يكون كذلك– **لكان تشبيههم أفظع وأشنع**؛ فإنهم زعموا أن كلام الله لا حرف فيه ولا صوت، وكلام الله، وذو النحل[٤٢]، وسائر الحُكْل[٤٣] لا حرف فيه ولا صوت، فشَبَّهوا كلام الله بكلام الحُكْل، تعالى الله عن قولهم عُلُوّاً كبيراً»[٤٤].

وممن استعمل هذا النوع من القلب ضد الأشاعرة الشيخ أبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي، وذلك حينما عرض لقول الأشاعرة في نفي الحرف والصوت عن الله، وأنهم احتجوا على ذلك بنفي التشبيه ، حيث قالوا: «إن إنكارنا الحروف والأصوات خوفاً أن يؤدي إلى إثبات الجسم والأدوات والمخارج المخصوصات، وذلك مستحيل...»، فقلب عليهم ابن عقيل هذه الحجة مبيناً أن هذا المحذور متحققٌ فيما هربوا إليه من القول بالكلام النفسي، فقال –بعد بيانه

---

(٤٠) انظر: الحيدة والاعتذار(٧٢).

(٤١) نكت القرآن الدالة على البيان، للإمام الكرجي القصاب(٤/٤٥٨).

(٤٢) قال المحقق(محمد باكريم): «هكذا في الأصل، ولعل الصواب (ودَوِيُّ النَّحل) أي صوته»ا.هـ، ويحتمل أنها: «وذو النمل»، والله أعلم.

(٤٣) قال ابن فارس:«الحُكْل: الشيء الذي لا نطق له من الحيوان، كالنَّمل وغيره» معجم مقاييس اللغة(٢/٩١).

(٤٤) الرد على من أنكر الحرف والصوت للسجزي(١٢١).

لغلطها-:«إنه قد لزم الأشعري مثل هذا في إثباته قائماً بالنفس، فإنَّ ما يكون في أنفسنا نحن إنما هو محتاج إلى محل يقوم به من آلات تخيُّلٍ وفكر، وهو القلب والرأس...»[٤٥]، وبنحو ذلك قال عبد الوهاب ابن الحنبلي رحمه الله :«ثم فراركم من الحرف والصوت لأنه لا يظهر إلا من لسان وأدوات وحلق، وهذا لازم لكم في المعنى القائم بالنفس، لأنه لا يكون إلا في قلب ودماغ وعقل وآلة»[٤٦].

ويقول الشيخ الشنقيطي رحمه الله عن تحريف هؤلاء:«فحملوا نصوص القرآن أولاً على معانٍ غير لائقة بالله، ثم نَفَوها من أصلها فراراً من المحذور الذي زعموا، والبَلِيَّةُ الثالثة: أنهم يُفَسِّرون الصفة التي نفوها بصفة أخرى من تلقاء أنفسهم من غير استناد إلى وحي، **مع أن الصفة التي فسروها بها هي بالغة غاية التشبيه بالمخلوقين**، فيقولون: (استوى) ظاهره مشابهة استواء المخلوقين، فمعنى استوى: استولى، ويستدلون بقول الراجز في إطلاق الاستواء على الاستيلاء:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

ولا يدرون أنهم شبهوا استيلاء الله على عرشه الذي زعموه باستيلاء بِشر بن مروان[٤٧] على العراق، فأيُّ تشبيه بصفات المخلوقين أكبر من هذا، وهل يجوز لمسلم أن يشبه صفة الله التي هي الاستيلاء المزعوم بصفة بِشْرٍ -التي هي استيلاؤه على العراق- وصفة الاستيلاء من أوغل الصفات في التشبيه بصفات المخلوقين؛ لأن فيها التشبيه باستيلاء مالك الحمار على حماره، ومالك الشاة على شاته، ويدخل فيها كل مخلوق قهر مخلوقاً واستولى عليه، وفي هذا من أنواع التشبيه ما لا يحصيه إلا الله»[٤٨].

وقال شيخنا ابن عثيمين رحمه الله عمن حرَّف معنى اليد إلى القوة«هؤلاء إذا فروا مما

---

(٤٥) جزء في الأصول-أصول الدين-مسألة القرآن لأبي الوفاء بن عقيل(٧٨-٧٩).

(٤٦) انظر: الرسالة الواضحة في الرد على الأشاعرة(٢/٥١١-٥١٥).

(٤٧) هو بشر بن مروان ابن الحكم الأموي، ولي إمرة العراقين لأخيه الخليفة عبد الملك، وكان سمحاً جواداً، لا يغلق دونه الأبواب، ويقول:«إنما يحتجب النساء»، توفي بالبصرة سنة(٧٥هـ).

انظر: تاريخ مدينة دمشق(١٠/٢٥٣)، تاريخ الإسلام(٥/٣٧٠)، سير أعلام النبلاء(٤/١٤٥)، البداية والنهاية(٩/٧).

(٤٨) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات للشنقيطي(٤٩-٥٠).

يعتقدونه تشبيهاً وأثبتوا صفةً أخرى، نقول لهم: هذه الصفة موجودة في المخلوق، فقد وقعتم فيما فررتم منه من حيث التشبيه بالمخلوق، وشرٍّ منه من حيث تحريف النص...فأنتم إذا قلتم: اليد القوة، وقعتم في التَّشبيه على قاعدتكم؛ لأن للمخلوق قوة، فيلزم على قاعدتكم أن تكونوا مشبهين لله تعالى بخلقه»[٤٩].

بل إن العلامة المعلمي قد استعمل قريباً من هذا الرد مع الغلاة من الفلاسفة الذين جعلوا الله تعالى ذاتاً مجردة هروباً من التشبيه، فحتى هؤلاء لم يسلموا من التشبيه في قولهم هذا.

قال رحمه الله :«هذا والقائلون بأن ذات الله تعالى مجردةٌ أكثرهم يثبتون أو يجوِّزون وجود ذوات كثيرة مجردة، من عقولٍ ونفوسٍ وأرواح وغيرها! فليتدبر من له عقل: أليسوا أولى بزعم أن لله عز وجل مثلاً -بل أمثالاً- ممن لا يقول بالتَّجَرُّد المحض الذي يزعمونه ؟ فإن الذوات المخلوقة غير المجردة تتفاوت تفاوتاً عظيماً جدّاً، فما الظن بذات الخالق تبارك وتعالى؟ فأما المجَرَّدة -على فَرضِ وجودها- فكيف يعقل التفاوت العظيم بينها حتى تكون هذه ذات رب العالمين وهذه ذات روح بعوضة؟»[٥٠].

والحاصل أنهم مهما استخدموا طاغوت التأويل في صرف صفة من الصفات إلى معنى آخر، فلمعارضهم -من أهل السنة أو من غيرهم- أن يورد على ذلك المعنى لازماً من اللوازم المختصة بالمخلوق، ثم يجعل إثبات ذلك المعنى تشبيهاً، ويسمي مثبته مشبهاً، وليس لهم مدخل عليه، بل هم من مهدوا الطريق له، وبذلك ينقلب احتجاجهم بالتشبيه عليهم من هذه الجهة.

والناحية الثالثة من ملازمة التشبيه للمعطلة: ناحية الانتهاء والمآل[٥١].

---

(٤٩) شرح العقيدة السفارينية-للشيخ العثيمين(١٢٣-١٢٤).

(٥٠) القائد إلى تصحيح العقائد للمعلمي(١٢٤).

(٥١) هذه الناحية تتداخل مع الوجه الثاني للقلب.

والفرق بينهما: أن الوجه الثاني يراد به بيان أن قولهم راجع إلى إنكار وجود الرب، وهذا غاية البعد عن التنزيه، على النقيض مما ادعوه من قصد التنزيه، وهذا وجه الانقلاب عليهم، وأيضاً فإن الملاحدة احتجوا عليهم بعين دليلهم وقلبوه عليهم كما ذكر هناك.

وأما ما ذُكِر في الناحية الثالثة من الوجه الرابع فيراد به: أنهم بقولهم قد شبهوه بالمعدومات وبالمستحيلات، ففروا من التشبيه ووقعوا فيه، فظهر الفرق.

وذلك أنهم عندما نفوا الصفات –أو حتى بعض الصفات– عن الله، فإن قولهم قد آل وانتهى إلى تشبيه الله بأحد أمور ثلاثة: إما بالأموات والناقصات والجمادات، وإما بالمعدومات، وإما بالممتنعات.

فالذين نفوا عن الله بعض الصفات خشية التشبيه، فإنهم قد وقعوا في تشبيه أسوأ مما هربوا منه من حيث لا يعلمون، حيث إنهم قد شبهوا الله بالناقص من المخلوقات مما لا يتَّصف بتلك الصفة التي نفوها، كالأصنام والجمادات، فمن قال: إنه تعالى لا يتكلم، أو لا يُرى، أو إنه ليس فوق العالم، أو ليس فوق العرش، أو لا يفعل ما شاء إذا شاء، وعلل ذلك بأن إثباته يستلزم التشبيه.

فيقال له: إنك لم تَعْدُ أن مثلت ربك بمن فقد هذه الصفات من المخلوقات الناقصات، كالأعمى، والأصم والأبكم، بل إنك قد شبهته بالأموات، بل بالجمادات من الأحجار والأشجار ونحوها، مما لا يتَّصف بهذه الصفات، ولا يفعل ولا يتصرف ولا يجيء ولا يذهب بمشيئته ، ولا شك أن التشبيه بالجمادات شرٌّ من التشبيه بالأحياء الفاقدين لهذه الصفات، وتشبيهه بالأحياء الفاقدين لهذه الصفات شرٌّ من تشبيهه بالأحياء المتصفين بها، لو سُلِّم أن في ذلك تشبيهاً.

ولهذا فإن الله تعالى قد عاب على الأصنام أنها لا تتكلم، فقال عن العجل: ﴿ **أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا** ﴾طه: ٨٩ ، مما دل على أن عدم الكلامِ(ورجعِ القول) صفة نقص، «ففيما عاب الله به العجل في عجزه عن القول والكلام بيانٌ بَيِّن أن الله عز وجل غير عاجز عنه، وأنه متكلم، وقائل؛ لأنه لم يكن يعيب العجل بشيء هو موجود به»، كما قاله الإمام الدارمي رحمه الله [٥٢]، فوصف الله بعدم الكلام جمعٌ بين نسبة النقص إليه، وبين تشبيهه بهذا العجل، تعالى الله وتقدَّس، وكما قال عنهم ابن القيم رحمه الله :

هم أهل تعطيل وتشبيه معاً بالجامدات عظيمة النقصان[٥٣]

فقد قال الإمام أحمد رحمه الله –مستعملاً هذا النوع من القلب ضد من نفى صفة الكلام

---

(٥٢) الرد على الجهمية للدارمي(١٥٧).

(٥٣) نونية ابن القيم مع شرح ابن عيسى(٢/٤٤٤).

عن الله من الجهمية-:«قد أعظمتم على الله الفرية حين زعمتم أنه لا يتكلم، **فَشَبَّهتُمُوه بالأصنام** التي تُعبَد من دون الله؛ لأن الأصنام لا تتكلم، ولا تنطق، ولا تتحرك، ولا تزول من مكان إلى مكان»[٥٤].

كما أن إمام المحَدِّثين -البخاري رحمه الله -قد استعمل هذا القلب والإلزام، حيث قال: «قال بعض أهل العلم: إن الجهمية هم المشبهة؛ لأنهم شبَّهوا ربهم بالصَّنم، والأصمِّ، والأبكم الذي لا يسمع ولا يبصر ولا يتكلم ولا يخلق، وقالت الجهمية: وكذلك لا يتكلم ولا يبصر نفسه»[٥٥].

وكذا الإمام عثمان بن سعيد الدارمي رحمه الله ، فقد قال عن تعطيل المريسي لصفتي السمع والبصر:

«فقد جمعت أيها المريسي في دعواك هذه جهلاً وكفراً، **أما الكفر: فتشبيهك الله تعالى بالأعمى الذي لا يُبْصِر ولا يَرَى**، وأما الجهل: فمعرفة الناس بأنه لا يستقيم في كلام العرب أن يقال لشيء: هو سميعٌ بصيرٌ إلا وذلك الشيء موصوف بالسَّمع والبصر، من ذوي الأعين والأسماع والأبصار...

وكيف استجزت أن تسمي أهل السنة وأهل المعرفة بصفات الله المقدسة مشبِّهة إذ وصفوا الله بما وصف به نفسه في كتابه بالأشياء التي أسماؤها موجودة في صفات بني آدم بلا تكييف؟!

وأنت قد شبَّهت إلهك في يديه وسمعه وبصره بأعمى وأقطع، وتوهمت في معبودك ما توهمت في الأعمى والأقطع، فمعبودُك في دعواك مُجَدَّع منقوص أعمى لا بصر له، وأبكم لا كلام له، وأصمُّ لا سمع له، وأجذم لا يدين[٥٦] له، ومقعد لا حراك به، وليس هذا بصفة إله المصلين، **أفأنت أوحش مذهباً في تشبيهك إلهك بهؤلاء العميان والمقطوعين**، أم هؤلاء

---

(٥٤) الرد على الزنادقة والجهمية-ت:دغش العجمي(٢٧٤-٢٧٨)، وانظر: درء تعارض العقل والنقل(٢/٢٩٥-٢٩٦)، الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام(٥/١٣٣).

(٥٥)خلق أفعال العباد(٤٣).

(٥٦) في الأصل(لا يدان)، والصواب المثبت لأنها منصوبة، والأجذم: المقطوع اليد. انظر: معجم مقاييس اللغة(١/٤٣٩).

الذين سميتهم مشبهة أَنْ وصفوه بما وصف به نفسه بلا تشبيه؟! فلولا أنها كلمة هي محنة الجهمية التي بها ينبزون المؤمنين **ما سمينا مُشَبِّهاً غيرك**؛ لسماجة ما شَبَّهت ومثلت، وَيْلَك، إنما نصفه بالأسماء، لا بالتكييف ولا بالتشبيه»[٥٧].

وقال كذلك:«أَوَلَمَ تقل أيها المريسي: إنه لا يحل لأحد أن يتوهم في صفات الله بما يعرف معناه في نفسه، فكيف نسبت الله إلى العجز في سمعه، وبصره، على المعنى الذي تعرفه من نفسك، ثم قلت: فكما أنك بأحدهما مضطر إلى الآخر، كذلك الله -فيما ادَّعيت علينا- مضطر إلى الآخر، **فشبَّهت الله في مذهبك بالإنسان** المجَدَّع المنقوص، أَوَلَمَ تسمع أيها المريسي قول الله تعالى:﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾الشورى: ١١ ، وكما ليس كمثله شيء، ليس كسمعه سمع، ولا كبصره بصر، ولا لهما عند الخلق قياس ولا مثال ولا شبيه»[٥٨].

وبنحو ذلك قال إمام الأئمة، ابن خزيمة رحمه الله ، حين ذكر تحريف الجهمية لوجه الله، وأن معناه كمعنى قول العرب: وجه الكلام، ووجه الثوب، ووجه الدار، فزعموا أن الوجه من صفات المخلوقين، فقال رحمه الله رادّاً عليهم:«وهذه فضيحة في الدعوى، **ووقوع في أقبح ما زعموا أنهم يهربون منه**، فيقال لهم: أفليس كلام بني آدم، والثياب، والدور مخلوقة؟ فمن زعم منكم أن معنى قوله (وجه الله) كقول العرب: (وجه الكلام، ووجه الثوب، ووجه الدار) **أليس قد شبه على أصلكم وجهَ الله بوجهِ الموتان؟!**

لزعمكم يا جهلة أن من قال من أهل السنة والآثار القائلين بكتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ: (لله وجه وعينان ونفس، وإن الله يبصر ويرى ويسمع): أنه مشبه عندكم خالقه بالمخلوقين -حاش لله أن يكون أحد من أهل السنة والأثر شبه خالقه بأحد من المخلوقين-فإذا كان على ما زعمتم بجهلكم **فأنتم شبهتم معبودكم بالموتان**»[٥٩].

بل العجب أن هذا النوع من القلب قد استعمله الأشاعرة ضد المعتزلة والفلاسفة، حيث قال أبو المظفر الإسفراييني من الأشاعرة: «إن صانع العالم حيٌّ قادرٌ عالمٌ مريدٌ متكلمٌ سميعٌ

---

(٥٧) نقض الدارمي على المريسي(١/٣٠١-٣٠٣).

(٥٨) نقض الدارمي على المريسي(١/٣٠٨)، وانظر: نفس المرجع(١/٥٥٧).

(٥٩) كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب لابن خزيمة(١/٥٦-٥٧)، وانظر: نفس المرجع(١/٩٤).

بصيرٌ؛ لأن من لم يكن بهذه الصفات كان موصوفاً بأضدادها، وأضدادها نقائص وآفات تمنع صحة الفعل، فصحَّ ثبوت هذه الصفات له من وجهين: أحدهما: دلالة الفعل. والثاني: نفي النقائص، وقد دلت على إثبات هذه ظواهر نصوص القرآن»[٦٠].

فيقال: إن هذا الكلام **ينقلب عليكم** فيما نفيتموه، فلو لم يوصف الله بالعلوِّ الذاتيِّ والحكمة والرحمة وغيرها مما أنكرتموه لصار موصوفاً بأضدادها، وأضدادها نقائص، كما أن إثباتها قد دلَّ عليه ظواهر القرآن، بل نصوص القرآن التي لا تحتمل إلا معنى واحداً.

وأما الذين نفوا الصفات كلها عن الله، ولم يصفوه إلا بالسُّلوب من المعتزلة ونحوهم، وذلك خشية التمثيل بمن اتصف بالصفات من المخلوقين، فإنه يقال لهم: إنكم قد فررتم من تشبيهه بالموجودات، ووقعتم في تشبيهه بالمعدومات، كالأشياء التي لم تُخلَق أصلاً، والتي لن تخلق، ولا شك أن هذا شرٌّ من التشبيه بالموجودات الناقصات، «ولو كان مسلوب الصفات والأفعال والكلام والاستواء والوجه واليدين، ومنفيّاً عنه مباينة العالم، ومحايثته، واتصاله به، وانفصاله عنه، وعُلُوُّه عليه، وكونه يمنته، أو يسرته، وأمامه، أو وراءه: لكان كل عدم مثلاً له في ذلك، فيكون قد نفى عن نفسه مشابهة الموجودات، وأثبت لها مماثلة المعدومات»[٦١].

وقد حاول بعض الزيدية المعتزلة أن يخرج من هذا الاعتراض والإيراد، حيث قال في نفيه لصفة الكلام عن الله:«فإن قالوا: إذا لم يكن متكلماً وجب أن يكون أخرس، قلنا: إن الخرس آفة في اللسان، والله ليس بذي لسان ولا جارحة»[٦٢].

فيقال له أولاً: إن اللسان والجارحة لفظان حادثان لا يجوز إثباتهما ولا نفيهما إلا بدليل، وإلا كان ذلك افتراء على الله.

ويقال ثانياً: إن من يعدم صفة الكلام مع عدم قبوله له أشد نقصاً ممن عدمها مع قبوله لها، فإذا لم يكن في سلب صفة الكلام عن الله تشبيهٌ له بالحيوان الأخرس، كان فيه تشبيهٌ له

---

(٦٠) التبصير في الدين(١٦٣).

(٦١) الصواعق المرسلة(٣/١٠١٩-١٠٢٠).

(٦٢) حقائق المعرفة في علم الكلام- لأحمد بن سليمان بن محمد بن المطهِّر الزيدي-ص(١٧٨)، وانظر: المختصر في أصول الدين للقاضي عبد الجبار-ضمن رسائل العدل والتوحيد(١/١٩٣-١٩٤).

بالجماد الذي لا يقبل الكلام أصلاً، وهذا أشدُّ قبحاً[٦٣].

ويقال لهذا الزيديِّ ثالثاً: إن قولك هذا ينقلب عليك، فإنك قد قلت في نفس الكتاب عن الله -في الردِّ على نفاة الوجود والعلم-:«وإن لم يكن عالماً فهو جاهل»[٦٤]، فنقلب عليك ظهر المجنِّ ونقول كما قلت: الجهل عارض يعرض للدماغ -كما عرَض الجهل المركَّب لدماغك- والله ليس بذي دماغ(كل هذا تنزُّلاً على أصلك، وإلزاماً لك بقولك)، فهَلاَّ قلت هنا كما قلت هناك، بل هلاَّ قلت هناك ما قلته هنا؟!

وأما الذين لم يصفوا الله لا بالسلب ولا بالإيجاب، ونفوا عنه النقيضين -سواء من طَرَد هذا الأصل، أو من قال به في بعض الصفات، كقول الأشاعرة: إنَّه لا داخل العالم ولا خارجه- فإنهم قد شَبَّهوا الله بالممتنعات، وذلك شرٌّ من تشبيهه بالمعدومات أو بالجمادات أو بالأحياء من المخلوقات، بل هو شرُّ أنواع التعطيل، المناقض لبدائه العقول والفِطر.

وفي كلام بعض المتكلمين -كأبي منصور الماتريدي- ما يدل على هذا النوع من القلب، فلما ذكر قول من نفى صفات العلم والقدرة والكرم عن الله بحجة نفي التشبيه، قرَّر أن هذه الحجة لازمة لهم فيما صاروا إليه من النفي، إذ بذلك النفي تشبيه لله بما فقد تلك الصفات[٦٥].

كما أن أبا المعالي الجويني قد قال في رده على من نفى صفات الإثبات لئلا توجب الاشتراك بين الخالق والمخلوق:«ومما يتمسك به أن نقول: هَلاَّ قلتم: الاشتراك في صفة النَّفي يوجب الاشتباه، وما الفرق بين صفة الإثبات والنفي في هذا الباب؟!»[٦٦].

وإن تحذلق متحذلق منهم وقال: إن الباري لا يمكن أن يتَّصف بهذه الصفات أصلاً، فإنه قد رجع إلى تشبيهٍ أشدَّ من تشبيه من سبقه، فإنه قد شبَّهه بمن لا يمكن اتِّصافه بتلك الصفات من المخلوقات، (كالجدار الذي قالوا عنه: إنه لا يمكن أن يكون بصيراً ولا أعمى)، فضلاً عن

---

(٦٣) انظر: التدمرية ضمن مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام(٣/٢١-٢٢).

(٦٤) حقائق المعرفة في علم الكلام- لأحمد بن سليمان بن محمد بن المطهِّر الزيدي-ص(١٦٥).

(٦٥) انظر: التوحيد للماتريدي(٤٤).

(٦٦) نقله عنه شيخ الإسلام في درء تعارض العقل والنقل(٥/١٩٠).

أن من نُفِيَت عنه الصفة مع عدم إمكان اتصافه بها(كالجدار) فإنه أشد نقصاً ممن نُفيت عنه الصفة مع إمكان اتِّصافه بها(كالأعمى)، إذ من المعلوم أن القابل للاتصاف بصفات الكمال أكمل ممن لا يقبل ذلك أصلاً[٦٧].

قال شيخ الإسلام رحمه الله في قلب استدلال المعتزلة حين نفوا الصفات بحجة نفي التشبيه:«فمما يقال لهؤلاء أن هذا القول **ينعكس عليكم**، فأنتم أولى بالتشبيه...؛ فإنكم تشبِّهونه بالجمادات، بل بالمعدومات، بل بالممتنعات»[٦٨]، فإنه«من المعلوم أن اتصاف الموصوف بكونه حيّاً عليماً قديراً أكمل من اتصافه بكونه لا يشار إليه، ثم أنتم تفرون من إثبات صفات الكمال للرب في نفس الأمر -لما في ذلك من التشبيه- فإذا شبهتموه بالمخلوق فيما دون صفات الكمال من الصفات السلبية كان هذا أقرب إلى التشبيه الباطل ووصفه بالنقائص، ولكن هذه سُنَّةٌ معلومة للجهمية، يسلبون عن ربهم صفات الكمال -فراراً من التشبيه بالكامل من الموجودات- ويصفون بالسلوب المتضمنة صفات النقص التي يُشَبِّهونه فيها بالجمادات، والمعدومات، والممتنعات»[٦٩].

وقال رحمه الله عمن نفى النقيضين عن الله -من الباطنية ونحوهم-:

«وأما (الملاحدة) **فقلبوا** الأمر، وأخذوا يشبِّهونه بالمعدومات والممتنعات والمتناقضات، فغلاتهم يقولون: لا حيٌّ ولا ميتٌ، ولا عالمٌ ولا جاهلٌ، ولا سميعٌ ولا أصمّ، ولا متكلمٌ ولا أخرسٌ. بل قد يقولون: لا موجودٌ ولا معدومٌ، ولا هو شيءٌ ولا ليس بشيءٍ.

وآخرون يقولون: لا داخل العالم ولا خارجه، ولا مباين للعالم ولا حالٌّ فيه، وأمثال هذه

---

(٦٧) حول هذا الوجه من القلب، انظر: التدمرية(٥٩-٦٥)، مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام(٦/٨٨-٩٠)(١٦/٢١٠)، الفتاوى الكبرى له(٥/١٣٢-١٣٣، ٢٠٥)، درء تعارض العقل والنقل(٥/٢٧٣-٢٧٤، ٣٢٤) (٧/١٩)، منهاج السنة النبوية(٤/٥٨٩)، الرد على المنطقيين(٢٢٠)، الصفدية(١/٨٨-٩١)، شرح الأصفهانية-ط: الرشد(١١٩)، جواب الاعتراضات المصرية على الفتيا الحموية(١٣٧-١٣٩)، الصواعق المرسلة(٣/١٠١٨-١٠٢٢) (٤/١٢٣٥)، طريق الهجرتين (٢٥٨)، مفتاح دار السعادة(٢/١٠٦)، شرح نونية ابن القيم لابن عيسى(٢/١١٠-١١١)، منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات للشنقيطي(٤٩)، أضواء البيان له(٢/٢٩-٣١)، شرح القواعد المثلى للعثيمين(٢٣٣-٢٣٤).

(٦٨) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام(٦/٢٠٤).

(٦٩) درء تعارض العقل والنقل(١٠/٢٩١).

العبارات التي ينفون بها الأمور المتقابلة التي لا يمكن انتفاؤها معاً»[٧٠].

(٧٠) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام(٦/٥١٦).